من محور الأشياء الى مدار الأسطورة

بقلم ثابت عبد الرزاق

اذا كان الشعر في جوهره (رؤية روحية) وسعيا لترجمة الواقع الى مثال ، كما يقول كولرج ، فان هذا القول يصدق الى حد بعيد على قصائد فوزي كريم ، ان القصيدة لدى فوزي ، أشبه بشهقة روحية منغمة عبر الخنادق الملغومة بحثا عن النور ، ارتعاشة موقعة متولدة من اصطدام الذات بما هي حلم وفطرة بالعالم لاكتشاف « عالم يظل أبدا في حاجة الى الكشف » رينيه شار .

كما هي أيضا شبكة سحرية لصيد البهجة المتخفية وراء انكسارات الواقع وخطوطه العرضية فلا عجب ان أغلبها يستقي وهجه من ذلك العالم السري المخبوء وراء القشرة الخارجية للاشياء، ومن تلك « الابار الشهية البائدة » .

لا تكمن خصوصية قصائد فوزي، في كونها تنظر الى الموجودات على أنها أشياء فقط ، ولا في تجسيدها المجردات حسب .. انما تكمن خصوصيتها في قدرتها الرائعة على نقل تلك الاشياء الى عالم الاسطورة والخيال .

في قصائد فوزي ، دهشة أشبه بدهشة الاطفال أمام العالم « نتلمس رعشتنا » « نرتد دوائر مأخوذين بجاه الخوف » « ولهونا بأصابع غفلتنا عن سورة ماء » . وفي قصائده حنين الى بكارة الاشياء وبراءتها : « نتعثر في وهم براءتنا المنسية » وهيام اشبه بهيام المتصوفة لمعانقة ما هو أكثر جوهرية وسحرا :

« كنا نتأهب للسحر المخبوء وراء الساعة »

« كيف يلامس نهرا من زيتون ، نهرا من شرفات الروح ومن أبواب مفتوحة » .

قلما تنفتح قصائد فوزي على جزئيات الواقع العادية ، واذ يغترب الشاعر عما هو زائف وغير أصيل ، فانه لا يتبنى رفضا وجوديا مطلقا ، انما هو يعقد مصالحة ترتفع الى مستوى العشق الصوفي مع ما هو جوهري وسري وبهيج ، وهو عندما يهرب من الزوايا الحادة ، والنتوءات العرضية ، فانما ليلتجيء الى عوالم أكثر سحرا ودهشة كما يفعل الكثير من الرمزيين، ان أبيات ريلكه:

« ترحلين عني أيتها الساعة ، وبضربة جناحيك تفتحين
الجراح . وحين ما أفعل بفمي ؟ بليلي ؟ بنهاري ؟
ما من حبيبة لي ، ولا من بيت ولا من مكان أعيش فيه ،
وكل ما استسلم له يغتني ويهجرني ... »

ان هذه الابيات التي بدأ بها الشاعر مجموعته الثانية « ارفع يدي احتجاجا » تلقي ضوءا على أبعاد غربته الاجتماعية .. أليس يحس بأنه عار بلا انيس ، وانه كائن في عالم يتنكر له باستمرار « أنا منذ السابعة ، مبحر ، دون شراع أو علامة » . من هنا كانت الكآبة لديه محورا هاما تمر من خلاله كل لحظات فرحه وبهجته :

« يا بلاد الظما ،
والشجيرات خلف الظما تستريح
لم أعد سلما
حاصرتني العيون وأوجاعها والزمان الجريح »
« أرفع يدي احتجاجا »

وفي شعره احتجاج على وجود ناقص ، ومصير محكوم بالخيبة والانكسار :

« وها أنا
أقيم بين الزمن الثالث والمركبة المحطمة
تظلني سارية الحداد
بفيئها الساقط من نواحها المكتوم
أرقب حتفي في عيون الفرس المهزوم
مكفنا براية الاتي ..
من الرماد » « ارفع يدي احتجاجا »

وفيه حس طاغ بفرديته :

« لكني وحدي ، كنت أرى وجه الثعبان »
« لكني وحدي ، كنت الضاحك »

وهو قلما يتحمس لشيء قدر تحمسه أن يحل الشعر الى حلم وأسطورة . بل تجده أحيانا مشلول الارادة .. يعاني الكثير من خيارين أحلاهما مر واتجاهين كلاهما خاطئان :

« أوجز خطاك
ففي الخطوة الموت ، في الوقفة الموت »

و « ها انا من شاهق الغربتين
أصالح بين الصدى والسكوت
وها انت يا سيدي البين بين »

بيد أن الشاعر لا يتشاءم أو ينهار .. انما نجد في معظم قصائده معادلا لكل مظاهر الخيبة والاسى : عوالم الفرح ، والمدن الوضيئة ، التي لا تطفئها المتاهات ولا تطمس معالمها انكسارات الواقع . وما قصائده الا رحيل متواصل عبر الخنادق الملغومة للعثور على تلك الاشعة الهاربة :

« أجلس في المركبة العتيقة
بين صرير الخشب المنهار
والغبار .
اقرأ في الكف عن الاتي
وعن مدينتي المفقودة » « ارفع يدي احتجاجا »

وهي مدينة ذات ملامح اسطورية :

« أرى خلل الرماد وميض نار
ويوشك أن يصير دمي صداها
وألمس سرها علنا ، فتخبو
وأخبو ، حين تلمسني يداها
فاجهش بالبكاء لان عيني
تحن الى سماء لا تراها » « ارفع يدي احتجاجا »

بل هو غالبا ما يخلق جوا أشبه بالحلم .. كجزء من حلوله التي يحتمي بها :

« تخـوم سمـاوية تحـت ظلي
اذا شئت ، طوقتهـا في سـوار
وان شئـت ، كانـت مداري
اخط بها نخلـة للسـلام
وظـلا وعاشقـة في جـواري
وقوس سحـاب ألـون فيـه الكـلام
وان شئـت ، من تعـب ، أن أغـادر
هيـأت ربا وديعـا يسـامرني
ويحدثني عن زمـاني الصغيـر
وعن حلم دافيء في انتظـاري
فـأفرح
أفرح حتى أنام » « ارفع يدي احتجاجا »

ورغم اعتراض الشاعر على مظاهر النقص في الواقع ، فهـو يكـاد أن ينسيـك ذلك أمام اقاليم الفرح والبهجة التي يفتحها أمام عينيـك ، ان صرخة احتجاجه تكـاد أن تضيع في تلك العـوالم السحرية الآسرة ، حتى انـك تحس بأن الشاعر قد عقد صلحـه الابدي مع الواقـع ، بعيـدا عن النتوءات ، بعيدا عن انكساراته ، انـه كما يتبـدى اخيرا شبـه راض عن غربتـه ، حتى الالفاظ والصياغات التي يحرك بها أوجاعه ومتاعبه تظل خفيفة شهيـة ، نحس معهـا بأن فوزي قـد بنى قنطرة بين متناقضاته وبالتالي استطـاع أن يرأب صدعه بين واقعه المعاش وطموحاته عن طريق خلاصات هي أشبه بخلاصات الرمزيين .

فلضيـاعه رائحة السحر :
« كم كـان جميـلا أن أمحـو
من أثري الخطـوة وافـوت
أتنشـق سحر ضياعي ، وأغني
يـا وطني ، الغربـة ، يـا وطني
تمر ، ورغيـف ، وأمـوت » « ارفع يدي احتجاجا »

ولاوجاعه سحر « مشينا على سحر أوجاعنا »
وللظلام وهج مثير « ارتميت بوهج الظلام المغامر »
والحزن مظلة « صـار الحزن لي مظلـة ، أنام في ظلالها ، أحلـم في ظلالهـا »

كما أن لكل مظاهر الاسى والحزن نكهة شهية مغرية :
« الدمع الشهي » « هو الكوكب الشارد ، العذب حزني »
« هو الحزن لي زورق من سلال الفواكه ، يشتاقني »

غير أن فوزي في ديوانـه « جنـون من حجر » تهدأ لهجته ، ويترسـب فيه ما كان طافيا ، حزنه يستحيل الى مرارة ، وخيبته الى قنوط ، واذا بالكثير من عوالمه الوضيئة تختفي فالجو الكئيـب الذي يخيم على مقطع « آخرة الوحشـة » في ديوانه ارفع يـدي احتجـاجا :

« أبني معـك الليلـة بـابـا
كي ندخلـه في آخرة الوحشـة
نمتـد بـه ظليـن
ونسمـح للنـور العـابر
أن يوقفنـا ، نحن الاثنين
نتلمس رعشنـا بأناة المخذوليـن
وبقـايانـا
ليبـل الواحـد منا عطشـه
نتلمس لائحـة الموتى
هل نحن هنـا « « ارفع يدي احتجاجا »

يستمر نفسـه في مقطع « عندما ينتهي كل شيء » فيديوانه « جنـون من حجر » مع فـارق ، أن الاول يتشبث بحلم مـا وأن في رحلتـه تلك شيئـا من طعم اللذة عبر الخوف ، بينمـا في المقطع الاخير من « جنـون من حجر » ، لا تجد شيئا يصمد عندما ينتهي كـل شيء :

« عندمـا ينتهـي كـل شيء
عندمـا تنتهي كل ذاكرة من دم الذكـرى
أو يمر فتى بيننـا مائل للشفـاء من الحـب
أيتهـا الجارة الطيبـة
حين نصغي معـا في الخفـاء ، ونحن كتومين ،
حين نصغي لخطو فتى مائل للشفـاء من الحب
أو نستجيـب لـه عن طواعيـة
حين لا نقـرب الخـوف أو نرتديـه
فذلك يعني المرارة ، أيتها الجارة الطيبة
عندما ينتهي كل شيء » « جنون من حجر »

ان فوزي يحاول عبر الحلم ، عبر الاسطورة ، أن يضفي لحياته معنى يسكرها يجعله أكثر توازنـا ، وأقدر على العيش في عـالم محفـوف بالرعـب .

واذا كان فوزي في ديوانـه الاول « حيث تبدأ الاشياء » وبعض قصـائد ديوانه الثاني يقف على محور الاشياء يرقبها ويتأملها ، فهـو في ديوانه الاخير يخرق القشرة الخارجية للاشياء ، ليصغي الى ايقاعها ، كما وانه يحاول أن يبصر خـلال حلمه الطويل شعاعا من أمل وعبر مشاعر الصداقة والحب طريقا للخلاص .

في معظم قصائد فوزي يتسرب صراع خفي ، يتوزع أغلـب قصائده الاحدث الطموح والعجز عن تحقيقه ، الرغبة في الابحار ، وارادة معطلة لا تستطيـع الا الابحار داخل ذاته :

« اقسمت أن تختفي في تضاريس احلامك الموجعة » .

لقد ظل الحس الفردي عاليا « صرت صبي التواريخ جاوزتهم »
كما ظلـت فيه خيبـات تتوالى وكواكب تنكفىء ، واشيـاء كثيرة تنتهي :

« ما أنجبـت غير طفـل
تحدث في المهد عن كوكب سـوف يأتي ليسقط
عن كوكب سوف يأتي ليسقط ، عن كوكـب
سوف يأتي ليسقط ثالثة في خطانا
ويهـدأ فيها لنسقط عن كوكـب ... »

قـد لا تشد كل قارىء الاجواء التي تثيرها قصائد فوزي امـا لان هذه التجارب ذات خصوصية وهي تشبه الى حد ما مجاهرات المتصوفة مما يجعلهـا صعبة لكل قارىء ، اذ ان الكثير من القراء لا يملك رصيدا من الرموز والمعاناة المشتركة ، تمكنه من التعاطف مع حـالات نادرة كتلك التي عاشها فوزي ، أو لان فوزي أحيـانا لا يستطيـع أن يخلق المعادل المناسب الذي يقذف القارىء الى أجواء تجربته ، فهو مثـلا بدلا من ان يجعلك تعيش حـالات الفـرح والدهشـة ، يخبرك انه « مندهش » و « مأخـوذ » و « فـرح » حتى قصيدة « تجـاوز » التي تعد من القصائد الجميلة في ديوانه الاخير بكثافتها ورشاقة ألفاظها ، تثير هما فرديا خاصا نتوصـل اليه عبر نتائج تملى علينا دون ان نشاركه بالضرورة احاسيسه تلك .

كتـب و.هـ. أودن مرة يقول : تسأل الشاب : لماذا تريـد أن تكتب شعرا ؟ فـاذا أجابك : لدي أشياء هامة أريد أن أقولها فهو ليس بشاعر ، ولكن ان قال لك : اريد أن الم بالكلمات ، اصغي لما تقول ، فقد يصبح شاعرا . ولو استنطقنا اغلب قصائد فوزي كريم لوجدناها تقـدم لنا اجابة أودن نفسها ، لا يعني أن قصيدة فوزي لا تقدم سوى مغامرة شكلية ، فلقد اجتازت القصيدة لديه ، خصوصا في ديوانـه الاخير ، مرحلة القصيدة « المضمون » والقصيدة « الشكل » الى القصيدة « الحلم » التـي يتحـول فيهـا المضمون الى شكـل .

لم تكن لغة فوزي كريم اداة باردة للتوصيل ولا ألواحا زجاجية لعبور الرؤيـة انما هي لغة رنانة ، وضاءة ، متوترة ، تتحرك وفق هاجس صوتي ، يفجر كل طاقتها الايحائية والموسيقيـة ، وهـي مشحونة أبدا بعوالم سحرية آسرة ، كما أن فيها « الكثير من ملامح اللغـة البدائيـة » ولا تخطي الجهـد الذي يبذله فوزي من اجل ان يعيد للغتـه بعدها الصوري الحسي .

غير أن لغـة ديوانه الاخير ، وان افتقدت شيئا من طـاقتها الموسيقية التي تميز بها ديواناه : الاول والثاني .. أصبحت أكثر كثافة ، وأثقل شحنة .. انها هنا أصبحت دون قرائن مألوفـة ، دون تأريخ تقليـدي ، تفيض وتتدفق تحت ضغط حالة غير اعتيادية من المعـاناة مما يحتاج من القارىء جهدا غير قليـل ليتسنى له التعامل معها ، كما أن له حساسية عالية ازاء المفردة ذات الطعم الآسر .. لذلك قلما تنفلـت منه ألفاظ وعرة نابية أو صياغات ذات وقـع لا يناسب مناخ تجربته .

ان استيعاب الشاعر للتراث الثقافـي امد قصائده بقدرة عالية على الحركة والامتداد والتواصل مع الرصيـد الثقافي الذي يمتلكه بعض قرائه ، باستثناء بعض القصائد التي تفشت فيها اللغـة النثريـة والتجريدات الذهنية كقصيدة « ثلاثة مقاطع في الماء » و « هدأت عبر النوم والمياه والكآبة » فيديوانه : ارفع يدي احتجاجا .

وقصيدة « ابتعد مأخوذا في الضوء » في ديوانه الاخير تسربت اليها ايقاعات صاخبـة . ان فوزي معني أبدا أن يوفر لقصـائده خصوصا في ديوانيه الاولين البعد الموسيقي سواء أكان ذلـك عن طريق جرس المفردة أو التكـرار أو القافية ، مما يمدها بالغنـى النغمي والتنوع الايقاعي ويجعلها تنطلق رغم تمزق اجوائهـا على أجنحة سحرية .. بينمـا اكتفت لغة ديوانه « جنـون من حجر » بموسيقاها الداخلية ، وايقاع ما ترمز اليه ..

لقد استعمـل الشاعر التكرار بنجـاح في أكثر من موضع ، فتكرار لفظـة : « افرح » في قراءة للنوم : « وأفرح أفرح حتـى أنـام » أوحى بفرح طفولي بهيج . وتكرار لفظـة « يمتد » التي تكررت عدة مرات في قصيـدة « حسين مروان » استطـاعت أن تكسر حدود المكان الضيقـة :

« وكانت شوارع بغداد تمتد ، شمس تذوب على حافة السور
والسـور يمتـد ،
والنخل ما كان نخلا وصار ، يحركه عاشق في الرصافة ،
والنخـل يمتـد ،
يا صاحبي أفيقا على وجع نام بين الرصافة والجسر
والجسر يمتـد » « جنون من حجر »

كما أن تكرار لفظة « كوكب يسقط » عمق الاحساس بالخيبة :

« ما انجبـت غير طفـل
تحدث في المهـد عن كوكب سوف يأتي ليسقط
عن كوكب سوف يأتي ليسقط ، عن كوكب سوف
يأتي ليسقط ثالثـة في خطانا

ويهدأ فيها لنسقط عن كوكب » « جنون من حجر » .

ان بناء القصيدة لدى فوزي قلما يتخذ شكلا محددا .. فهو في ديوانيه الاولين وأغلب قصائده المطولة .. اعتمد البناء المنفتح الذي يتدفـق وفق موجاته النفسيـة .. بينما تتخذ قصائد ديوانه الاخير شكل البنـاء الهرمي . تبدأ القصيـدة في الغالب بحركة معينـة ، تتصاعد ، تبلغ درجة التحول ، ثم تستدير لتنتهي بحركة قد تكون لحظة تنوير كاشفة لحركة البداية أو مناقضة لها أو مؤكـدة لما تريد أن تقـول ..

فقصيـدة « تجاوز » مثـلا تبدأ :

« لقد كنت وحدك ، والارض دارت ، فدرت ،
وها انت تسكنـهم واحدا واحدا »

تنتهي بحركة مناقضة لحركة البداية تماما غير انها تستعير ألفاظهـا :

« مـا دارت الارض
لكنهم فاتحـوك بها ، فاستدرت
وهـا أنت تلفهم واحدا واحدا »

دار الآداب تقدم

الثلج يحترق

رواية بقلم

ريجيس دوبريه

في هذه الرواية ، يقفز مؤلف « ثورة في الثورة » الى الصف الاول من الروائيين الفرنسيين المعاصرين ، فينال أخيرا « جائـزة فمينا » المشهورة تقديرا لموهبته وفنـه .

و « الثلج يحترق » قصة رجل وامرأة ، بوريس وايميلا ، يبحث أحدهمـا عن الآخر ، فيلتقي بـه ثم يضيعه ، ثم يلتقي به ثانية ، ويحن اليه ويفقده ، عبر أوروبا وأميركا . في النضال والعذاب والموت والقتل . من أجل حب البشر .

اختارت ايميلا ، ابنة جبال النمسا ، ان تقاتل من أجل العدالـة . وتلتقي في هافانا بشاب فـرنسي ، بوريس ، نجا من ثورة أخرى ، فتسحره ، ولكنهـا تحب زعيما ثوريا ، هو كارلوس ، وتـذهب فتعيش معه في « لاباز » ، في الخفاء والفرح ، الى اليوم الذي تغتاله الشرطة البوليفية . وتفقـد ايميلا كل شيء : الرجل الذي تحبه ، والطفل الذي تنتظره ، والمعركة التي تخوضها ، ولكنها لا تترك الدرب الذي سلكته ، فمن كوبا الى التشيلي ، ومن بوليفيا الى انكلترة ، ومن باريس الى همبورغ ، تضطلع بقدرهـا حتى النهاية . قدر المرأة المناضلة .

ان « التاريخ » يسكن قصة هـؤلاء الابطـال . فهو لحمهم ، وعـذابهم ، وألمهم . ان سعادة بوريس وايميلا مستحيلة ، ولكن أناسا آخرين سيكونون يوما ، بفضلهما ، أقل شقاء .

ان هذه الرواية أغنيـة حب في مأساة عصرنا . توكيد ارادة للحياة وللنضال .

يصدر في الشهر القادم

هكذا « الفصل الاخر » وقصيدة « أوراق من خريف مفاجىء » و « دوار العصور » و « موت حسين مروان » والمقطع الاخير من « شاعر سرقته الخيول » أما القصائد المطولة ذات المقاطع المتعددة فأغلبها يعتمد البناء المنفتح .. لا تشد هذه المقاطع وحدة عضوية .. غير انها في الغالب يشدها جو نفسي يكاد أن يكون واحدا ..

فقصيدة « مأوى لكل الظلال » تنهي ما تريد أن تقول في الابيات الاولى وما يتبقى فهي مجموعة من الاغاني والتداعيات .. حتى قصيدة « حسين مروان » رغم انها تتحرك على محور مأساوي عنيف .. فبالامكان أن تحذف منها أكثر من بيت دون أن يغير ذلك شيئا ..

الشعر لدى فوزي .. أغنية روحية .. فانه لا يشغله أن يكتبه على شكل قصة أو دراما .. وهو قلما يلجأ الى الحوار الا حواره مع نفسه باستثناء بعض مقاطع « قراءة للتسول » وقصيدة « حسين مروان » ومقاطع أخرى استعمل الحوار خلالها بنجاح .

ان فوزي وفي قصائده الاحدث بدأ يكثر من ادخال تنويعات كثيرة على بناء قصيدته .. فهو قد يبدأ بالتقرير ثم ينتقل فجأة الى الاستفهام ومن الماضي الى الحاضر .. مما منح قصيدته حركة غير عادية من التوتر .. وقدرة على استيعاب معاناة متفردة :

« طاوعت نجما بعيدا تغور .. لم تلتفت ! »
« متى يتريث هذا القطيع من الهم ؟ »

وكثيرا ما يستفيد الشاعر من « سيناريو » السينما في أسر لقطات ومناظر عابرة يدخلها بذكاء في نسيج تجربته الشعرية . انظر « وطن الاسرار » ، « قراءة للوجه الاخر » . كما أن فوزي رسام بارع وخالق مناخات .. وهو غالبا ما يأسر لقطة في البداية تهيىء للدخول الى جو القصيدة ، ان لم تشكل هذه اللقطة مفتاح سر أغلب قصائده . فقصيدة « مأوى لكل الظلال » تبدأ بلقطة خاطفة هكذا فجأة :

« جنود يعودون اسرى ، أمام اتهاماتنا »

واذا بهذه اللقطة .. تصبح محورا تدور عليه القصيدة ..

ان قصيدة « موت حسين مروان » لوحة فنية متكاملة مفعمة بالالوان :

« جليد على الارض
في الافق طير
يضيء جناحيه برد الجليد
يحلق لكن رعشته تستبيه
فينحل جزءا فجزءا » .

فالجليد وان كان يرمز لضغوط الحياة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية ولكل مؤشرات الجفاف والذبول .. فانه يوحي ايضا بتشكيلة رائعة من جمال الارض ومغرياتها ، طائر يستوحي القه ونصاعته من ذلك الجليد ، يحلق ، يطمح أن يرتفع عاليا ، لكن الى اين ؟ فضغوط الارض لا تدعه يفلت ، يشده في الخارج جليد وفي الداخل مرثية لا يستطيع منها فكاكا .

في قصائد فوزي كريم شيء من مناخات ادونيس ، الاحساس بالمحاصرة والتفرد والشهادة والنبوءة وهي ايضا هموم اغلب الرمزيين وفي ديوانيه الاوليين شيء من حركة لغته ونمو صوره خصوصا في قصيدتي « شجرة الحلم » و « هدأت عبر النوم والمياه والكآبة » غير اننا نجد فوزي كريم اكثر استيحاء لاجواء الطفولة الحافلة بالفرح والبراءة واكثر دهشة وانبهارا امام العالم .. بينما دهشة ادونيس هي اقرب الى دهشة الحكم والرجل الخبير .

لا شك ان قصائد فوزي استطاعت ان تقذف القارىء خارج حدود لحظته العابرة ليعانق ما هو اكثر بهجة واكثر خصوصية .. كما اننا وان لم نجد قضية معلنة تستقطب صوره وافكاره ، او رغبة حادة لتغيير الواقع او تبديله .. تظل قيمتها العليا في سعيها لتوسيع مداركنا وتوسيع حس العيش فينا .. وبالتالي حرصها ان تكون بشكل في الاشكال نبأ عن الواقع .. والشاعر وان لم يأت لنا بالكثير مما نتوقعه ، فقد امتعنا بسحر رحلته ايما امتاع ... ان قصيدة فوزي التي اصطادت لنا البهجة والانكسار واللحظات الاكثر خصوصية مطالبة بان توسع من آفاق بهجتنا وتجربتنا الاكثر اهمية .

بغداد

صدر حديثا :

زوربا

الرواية الشهيرة لـ

نيكوس كازانتزاكي

بعد غيابها طويلا عن السوق

ترجمة جورج طرابيشي

•

الشك

الرواية الشهيرة لـ

كولن ولسن

التي كانت تنقص مجموعته

الروائية الكاملة

صدرتا حديثا

في طبعة جديدة

عن دار الآداب